26 فيسوافا شيمبورسكا

«شعرى ليس سياسياً، برغم أن الحياة تتقاطع بشكل جذرى مع السياسة، ولكننى حرصت على أن أبعد جميع كتاباتى الشعرية عن السياسة، فهى كلها عن الناس والحياة» .

الشاعرة البولندية الفائزة بجائزة نوبل فى الأدب عام 1996م .

والتى تُجسِّد الاتحاد الكامل للتفكير العميق فى الفلسفة والحياة مقروناً بغنائية شعرية تُثير الإعجاب.

الميلاد والتعليم :

ولدت الشاعرة «فيسوافا شيمبورسكا» فى الثانى من يوليو عام 1923م فى مدينة «كورنيك» فى منطقة «بوزنان» غرب بولندا، ثم انتقلت فى الثامنة من عُمْرها للعيش نهائياً فى مدينة «كراكوفيا» جنوب بولندا عام 1931 م، وهى المنطقة التى عاشت فيها الشاعرة طوال حياتها .

كما تلقت العلوم الاجتماعية بجامعة «كراكوفيا» (وهو اسم العاصمة التاريخية لجنوب بولندا) . وفى الفترة ما بين 1945 و 1948 م درست أول الأمر فى قسم اللغة والأدب البولندى ومن ثَمَّ تحوَّلت إلى فرع السوسيولوجيا الذى لم تكمله.

عملت منذ عام 1953 م فى هيئة تحرير الحياة الأدبية (وهى مجلة أدبية أسبوعية مهمة كانت تصدر فى كراكوفيا) نشرت فيها بانتظام مقالاتها الموجزة بعنوان «مطالعات

اختيارية»، حيث كتبت مقالات ومعالجات مختلفة حول الفن والثقافة إضافة إلى المقالات النقدية والأدبية حول قضايا الفكر والثقافة والشعر المعاصر، ولها دراسات مهمة حول بعض الشعراء المعروفين أمثال : «لوركا «و «بودلير» .

تتبع نقدى لأهم دواوين فيسوافا شيبمورسكا الشعرية :

دى وان : لهذا نحن نعيش :

توزعت قصائد الشاعرة «فيسوافا شيمبورسكا» على عددٍ قليل - نسبياً - من الدواوين، حيث نُشر لها عام 1952 م ديوان «لهذا نحن نعيش»، وقد أسهم هذا الديوان فى قيام الحركة الشعرية الحديثة فى بولندا، التى يجدها النُّقاد من أهم الحركات الشعرية فى العالم المعاصر . وكان يغلب على هذا الديوان الهم السياسى والاجتماعى .

أمَّا البداية الحقيقية بالنسبة للشاعرة فكانت فى عام 1945 م حينما نشرت قصيدة «أبحث عن كلمة» أى وهى فى الثانية والعشرين من عُمُرها . كان شعر هذه الحقبة يُعالج الموضوعات الإمبريالية الغربية، ومعاناة البروليتاريا فى ظل النظام الرأسمالى، لذا كانت قصائدها تدور فى التجربة الاشتراكية .

وقد تبرأت الشاعرة مؤخراً من قصائدها الأولى، وترفض إعادة طبعها، لأنَّها تعتبر أن أسلوبها كان أسلوباً واقعياً اشتراكياً يتناقض مع معتقداتها الحالية، وقد فعلت هذا فى محاولةٍ للتأقلم مع المناخ الواقعى الاجتماعى . ويرى النُّقَّاد أن «فيسوافا شيمبورسكا» كتبت هذا الشعر قبل أن تسقط بولندا فى الحكم الشيوعى الذى سيطر عليها عقب نهاية الحرب العالمية الثانية .

ديوان : أسئلة مطروحة على الذات :

نشر هذا الديوان فى عام 1945 م، وهو ديوان يُجسِّد تفكيراً فلسفياً دائماً فى المشكلات الأخلاقية فى تلك المرحلة فى قالب شعرى مُحكم آخاذ .

ويعتبر النُّقَّاد أن ميلاد «فيسوافا شيمبورسكا» الحقيقى قد ولد فى هذا الديوان، حيث يتضح فيه جميع اتجاهات الشاعرة واهتماماتها فهى لا تتعامل مع السياسة على حد قولها :«شعرى ليس سياسياً، برغم أن الحياة تتقاطع بشكل جذرى مع السياسة،

obeikandl.com

فى مجموعتها الشعرية «نداء إلى بيتى» . وقد ذكر الناقد «إدوارد هيرش» أن شيمبورسكا استنتجت أن الإيمان بالشيوعية كان مثل الإيمان برجل الجليد Snow Man الذى لا يوفر الدفء الإنسانى أو الطمأنينة .

ديوان : الملح :

وقد صدر هذا الديوان فى عام 1962م، ويلاحظ أن الشاعرة فى تلك الفترة قد عمقت ووسعت أفكارها عن الإنسان والمجتمع والحبّ والتاريخ والوجود . وقد أخذت الشاعرة تميل إلى الاقتصاد فى الصورة والعبارة وإلى ضغط الفكرة المُحدَّدة ببنية مُحدَّدة شعريًّا، أمَّا السمة الرئيسة التى حددت معالم الديوان هى الطبيعة إزاء الثقافة، والبيولوجيا إزاء الفن، موظفة السحر إلى أبعد حد فى بنية القصيدة وفكرتها .

ديوان : مليون ضحكة وأمل مشرق :

فى عام 1966 م تخلت «فيسوافا شيمبورسكا» عن النهج المتوازن الذى تبنته، فهى لم تُهاجر من وطنها بحثاً عن الحرية، كما لم تُجاهر بالعداء والتمرّد على السلطة الحاكمة، وهو العام نفسه الذى انفصلت فيه عن الحزب الشيوعى البولندى . والمعروف أن الشاعرة قد عُرفت بموسوعيتها، كما مارست أعمال الترجمة الأدبية، فنقلت إلى البولندية مجموعة أعمال أدباء وشعراء تأثرت بهم .

وفى عام 1967 م من القرن المنصرم بدأت«شيمبورسكا» الاعتماد على قصيدة النثر أسلوباً، والتأكيد على موقع الإنسان فى الكون الواسع مضموناً، فكان ديوانها «مليون ضحكة وأمل مشرق»، حيث تجلَّت فيه مرحلة النضج والتمكُّن .

كما نلاحظ بعد قراءة هذا الديوان أن هناك تركيزاً على فكرة الحداثة والتاريخ والحبّ والموت وتعاقب الأزمان، مع إثارة قضية الأخلاق، والتفاهُم بين الناس من جديد. واستطاعت «شيمبورسكا» أن تكشف عن المتناقضات فى الطبيعة وحياة بنى البشر وتوظفها إلى أقصى حد بإدخال عنصرى السخرية والمفاجأة وطزاجة طرح الأسئلة، فالشاعرة تقول : «أنا لا أُمارس فلسفة كبيرة، وإنما شعراً متواضعاً فقط» .لكن يبدو أن

رجال العلم والفكر قد تركوا أثراً فى نفسها أكثر من الشعراء أنفسهم، فلقد حركوا فيها عنصرى الدهشة والتأمُّل مثل قصيدة «فى نهر هيراقليط» :

فى نهر هيراقليط
أنا السمكة الواحدة، أنا السمكة المستقلة،
(ولو من السمكة الشجرة ومن السمكة الحجر)
أكتب فى اللحظات الخاصة أسماكاً صغيرة
بحر شفة فضية للحظة هكذا ،
بحيث يمكن للعتمة فى ارتباكٍ أنْ تومض
النيزك سقط ..
هذا ليس نيزكاً !!
البركان انفجر ..
هذا ليس بركاناً !!
ثمة مَنْ نادى شيئاً
لا شىء .. لا أحد !!

ديوان : لا شىء مرَّة أُخرى :

صدر للشاعرة عدة دواوين متتالية مثل : «هناك من أجل صلاة شكر» عام 1972م، و «عدد كبير»، و «الناس فوق الجسر» عام 1976م، وديوان لا شىء مرَّة أخرى» عام 1980، أى قبل التمرُّد الأكبر فى «جد انسك» الذى قادته حركة «تضامن» العمالية فى وجه السلطات الشيوعية، حيث تقول على سبيل المثال :

بالابتسامات والقبلات، نحن نفضل
أن نعقد اتفاقاً وراء نجمتنا .
لأنَّنا مختلفان
مثلما تختلف نقطتا ماء

ديوان : النهاية والبداية :

صدر للشاعرة ديوان «النهاية والبداية» عام 1993 م، والذى يشمل قصيدة «قطة فى شقة خالية» التى يعتبرها النُّقَّاد من أجمل قصائد الرثاء وأرقها :

لا شىء يبدأ
فى الوقت المعتاد
لا شىء يحدث
كما ينبغى
شخص ما كان دائماً، دائماً هنا
ثم فجأة اختفى
ولا يزال مختفياً فى عناد
فتشت كل الدواليب
تم البحث فى كل رف
عمليات التنقيب تحت السجادة لم
تكشف عن شىء
بل انتهكت وصيته
تبعثرت الأوراق فى كل مكان
لتنامى إذاً وتنتظرى
انتظرى فقط حتى يظهر
دعيه فقط أن يُظهر وجهه
هل سيتعلَّم درساً أبداً
عمَّا لا يجب أنْ يفعله بقطةٍ
أمشى فى استحياء نحوه

كما لو أنكِ غير راغبة

وبطيئة إلى أبعد حد

على مخالب جريحة بشكلٍ واضح

بدون قفزات أو صرخات على الأقل ..

فى البداية ..

كما صدر للشاعرة فى عام 1993 م ديوان «مثل كسرات الخبز الصغيرة» ولها أيضاً تسع مختارات شعرية صدر آخرها في نوفمبر 1996م وكذلك مجلدان نثريان يضمان مقالاتها بعنوان «مقالات اختيارية» فى الصحافة البولندية، وكتابان فى مجال ترجمة الشعر، الأول : مختارات من أشعار ألفريد دى مواسيه عام 1957 م، والثانى : أشعار مختارة من شعر بودلير عام 1970 م .

محاولة للولوج فى عالم فيسوافا شيمبورسكا الشعرى :

القدرة على طرح الأسئلة :

بلغت الشاعرة من الحكمة حد إدراك أن ما يجذب الناس إلى الشعر فى الوقت الراهن ليس قدرة الشعر على إصدار بيانات ولكن فى طرح الأسئلة ونموذج الاستجواب، أو استجواب الذات ينبئ عن وجوده فى تردُّد مذهل وإصرار فى ثنايا جميع قصائدها . وفى الجزء الختامى من قصيدتها «أفول القرن» تستخدم صفة قوية ولكنها مفاجئة لتشير إلى القيمة الخاصة التى تُميِّز جميع الأسئلة التى تطرحها :

كيف ينبغى أن نعيش ؟ سألنى

أحدهم فى رسالةٍ

كنت أقصُد أن أسأله

نفس السؤال ..

أكثر الأسئلة إلحاحاً ..

هى الأسئلة الساذجة !!

وربما تكون تلك الأسئلة المُلحة التى تطرحها الشاعرة تبدو على الأقل للوهلة الأولى ساذجة، هو الذى يُعطى شعرها قدرة الانفتاح على الآخر، ولكن ذكاء شعرها يكمن فى توسيع الاستجواب ليتجاوز حدود رجل الشارع، ومعظم قصائدها تبدأ على أنَّها تتحدَّث إلينا وتعيش فى الوقت نفسه كواحدةٍ منا.

تجاوز حدود اللغة المُغلقة :

تجاوزت «شيمبورسكا» حدود اللغة المغلقة إغلاقاً مُحكماً، فأمست شاعرة فيلسوفة، تتحدَّث باسم البشر - بلغتها وفى الوقت نفسه بصوتنا، فالموضوع الجوهرى لإبداعها الشعرى هو حالة البشر، وإمكانات قدراتهم واختبارها فى مواجهة الاحتمال البشرى . إنَّها فى الوقت نفسه تُعبِّر عن دهشتها العميقة لذلك الوجود الفردى الإنسانى المتميز.

أشعار منغرسة فى فخاخ فلسفية :

الإنسان عند الشاعرة لا يمكن لوجوده أن يعتمد على تجسيد الأفكار المثالية، لأنَّه لا يدخل فى ذاته تلك الطُّرز المثالية التى ترضيه.. فمن أىّ مصدر إذاً يأتى هذا الوجود؟

إنَّ معجزة العالم عدا كونها خارجة عن دائرة الإفلاس، هى معجزة الاستمرار والتواصل، هى عدو للوجود الإنسانى الفردى، ذلك الوجود الذى لا يرضى بالمشاركة، وإنما يسعى إلى أن يكون موضوعاً للبحث .

فأشعار«شيمبورسكا» منغرسة فى فخاخ فلسفية، وصراعات تدور بين ما هو عام وخصوصى، فردى وجماعى، أخلاقى ولا أخلاقى، مستمر وغير مستمر، إنسانى ولا إنسانى، أنثوى ورجولى، صادق وخادع، تاريخى وطبيعى .

عندما تتعامل«شيمبورسكا» مع تلك الصراعات، والتى تُعد جزءاً لا يتجزأ من التراث الأوروبى، فإنَّها فى إبداعها الشعرى لا تقلل من أهميتها، ولا تقوم بتعديلها، ولا تحاول أن تستبدل بها نظاماً أو نسقاً آخر . إنَّها تُقدِّر وزن هذه التناقضات، بل تختبرها بنفسها وفقاً لخبرتها وتجربتها الإنسانية .

الصوت الشعرى غالباً ما يثير دهشة القارئ ويصدمه !

ذلك لأن مصدر الصوت تنبع غنائيته من مكانٍ خفى غير متوقع : من زاوية القاعة، من كواليس المسرح، من داخل زجاج المعروضات المتخفية، من قاع ممرات الطرق السائرة عبرها فضلات المدينة، من مسارب الأحلام الداخلية، ومن أعماق المياه . فشعر الشاعرة البولندية هو صوت متواضع، هامش كتاب ضخم سُطِّرت كلماته حول العالم كأنَّه الفصل السادس للمأساة التى لا تنتهى، خلفيةٌ للوحة المرسومة .

يستحيل فى شعرها الأمر غير الجدى جدياً !

فإننا لا نشاهد - فى رؤيتها الشعرية لباريس - كاتدرائية نوتردام لأن ما يثير اهتمامها أكثر فأكثر هو رؤية صعلوك clochard متجول فى المدينة الكبيرة . وعند قراءتنا لبعض من قصائدها نشعر بأننا فى صالة رياضية تدور فيها مباراة ملاكمة، حيث تصرخ الجماهير انفعالاً وحماساً .فتقول في قصيدة «أمسية شعرية» من ديوان «أشعارنا المعشوقة»:

آنذاك
فى الصف الأول يغفو العجوز
إغفاءة لذيذة ويحلم،
حيث زوجته المرحومة قامت
وصنعت فطيرة من البرقوق
فى النار المشتعلة اشتعالاً
هادئاً، كى لا تحترق الفطيرة ،

التوحُّد مع موجودات ومواقف تتداخل مع كنايات :

تلك الكنايات والرموز التى تذكرنا بتلك الأفكار المتجلية فى كتابات الأعمال الأدبية المنتمية إلى العصور الوسطى، تلك التى لا يضيع فيها مسحتها الأخلاقية الدائرة على ألسنة الحيوانات، وهى كنايات لها خصوصيتها عندما يتعلّق الأمر باختياراتها للأشياء

الموصوفة، وطرق التفكير فيها، فلماذا نحصر إذاً دراما العالم عند حدود المشاعر الإنسانية، أى فى حدودنا الذاتية فقط؟!

وهكذا تقبع فى الطريق خنفساء ميتة

لا يرثيها أحد،

يكفى التفكير فيها بالقدر، الذى تكون فيه

محط نظرتك :

يبدو كأنَّه لم يحدث شىء جدى لها

فالشىء الجدى مرتبط بها

بحياتنا فقط، وفقط بموتنا

الموت الذي يزهو بأنَّه أسبق الجميع(1)

فمن منظور «خنفساء ميتة» ومن منظور حلم السلحفاء فى قصيدتها «حلم سلحفاة عجوز» ومن منظور قردة ساخرة تحت عنوان «القردة» يرتسم بوضوح السمو المشترك لعالمنا الإنسانى، وقسوته البالغة، وإطراءاته الخالية من محتواها، وحمقه غير المتوقع ..

العودة إلى أطراف الزمن، إلى عصور سحيقة :

«شيمبورسكا» تعود فى رغبة شديدة إلى أطراف الزمن ومعاييره، تتعمق داخل سراديب عصور سحيقة بعيدة عن عصرنا، تنحو نحو العصور الأركيولوجية أكثر مما تنحو نحو العصور التاريخية، تشيد أصولها انتماءاتها السابقة، فينتج عنها أن المتغيرات والتطورات تضع فى حسابها الخسائر أيضاً :

هبطت لى فى البحر جزيرة واحدة

فثانية

إلى حد أننى لا أعرف بالضبط ،

أين وضعت الأظافر؟

(1) مقطع من قصيدة "مشاهدًا من أعلى"، من ديوان "عدد كبير".

obeikandi.com

مَنْ ذا الذى يرتدى فرائى، مَنْ
الذى يسكن قشرة بيضتى[1]

وقريباً من هذا الأسلوب من التفكير، نكتشف الروح ذاتها فى هذه القصيدة :

عزيزاتى «سيرينا»[2] كان ينبغى
أن يكون ،
عزيزاتى أرواح الغابة، أيتها
الملائكة الإناث المبجلات
إن «النشوء والارتقاء» قد لفظكم

اكتشاف قيم الحقائق الذاتية المتوغلة فى الخبرات والتجارب:

تؤمن «شيمبورسكا» بلا ريب فى اكتشاف قيم الحقائق الفردية والمتجزئة ،المتوغلة فى الخبرات والتجارب التى لها علاقة وثيقة بالحياة، ولا تجد الشاعرة فى قدرات التحمُّل البشرى أى رموز و «دلالات» تُبرهن على استمرار بقاء التفكير المُجرَّد الإنسانى، ففى قصيدة «يوتوبيا» تُقدِّم الشاعرة نفسها باعتبارها نقيضاً لما يطلق عليه بالمنطق المركزى المتعقل . فنسق العالم - فى رأيها - مُرتق بشكلٍ مبالغ فيه، وليس وفقاً لمقتضيات الإنسان وحاجاته :

فى اليمين، كهف، يرقد فيه
الحلم .
فى اليسار، بحيرة عميقة اليقين .
وعن القاع، تنفصل الحقيقة ،
وتسبح فوق السطح بسهولة .

---

(1) من قصيدة "اتفاقية فى مكتب العثور على المفقودات"، من ديوان "أياما كانت الأحوال".

(2) سيرينا : هى تلك الشخصية الأسطورية، نصفها امرأة والنصف الآخر ذيل سمكة .. تُعدّ من الأرواح المائية.

يسيطر على الوادى، يقين غير متحرك .

من قمته يهيمن جوهر الأشياء

ومع كل خصائصها، فإن الجزيرة

بلا بشر ،

ونشاهد آثار الأقدام الدقيقة عند

ساحل الشاطئ

الشاعرة الفيلسوفة .. تفوز بجائزة نوبل فى الأدب :

مكانة أدبية كبيرة قبل نوبل :

«فيسوافا شيمبورسكا» يضعها النُّقَّاد ضمن ضلع مثلث يمثله كل من: «زاييتو هربرت» (1924م)، و «تادوش روزفيتش» (1921م) اللذين ينتميان إلى نفس جيلها .

والشاعرة قبل أن تحصل على جائزة نوبل فى عام 1996م منحت العديد من الجوائز الأدبية البارزة أهمها : جائزة جوته عام 1991م عن مدينة فرانكفورت، جائزة «هيردر» عام 1995م، جائزة النادى البولونى عام 1996، كما منحت الدكتوراه الفخرية من جامعة «آدم ميكيفيتش» عام 1995 م .

فى بولندا : لا أحد يُصدق !!

حسب ما نشرته جريدة «لوموند» الفرنسية، فإن فوز «شيمبورسكا» بجائزة نوبل سبَّب دهشة للبولنديين، لأن توقعاتهم قد خابت حيث كان معظمها يتجه نحو الشاعر «زاييتو هربرت» فهو أبو الشعر الحديث فى بولندا، والأكثر حضوراً والتصاقاً بالقضايا المُلِحَّة .

ولكن .. هكذا جاء بيان الأكاديمية السويدية :

جاء فى حيثيات بيان لجنة الأكاديمية السويدية فى استوكهولم حول منح جائزة نوبل للشاعرة البولندية «فيسوافاشيمبورسكا» : «مُنحت الجائزة لشعرها الذى يجعل

بإحكامه ذى المسحة الساخرة المضمون التاريخى والحيوى يخرج إلى الضوء فى شذرات من الواقع الإنسانى، ولشعرها الذى يكشف فى سياق تاريخى، وبسخرية دقيقة، الحقيقة الإنسانية المشتتة» .

وأضافت اللجنة : «إن اختيار «فيسوافاشيمبورسكا» للفوز بجائزة نوبل لأنَّها تُجسِّد الاتحاد الكامل للتفكير العميق فى الفلسفة والحياة مقروناً بغنائية شعرية أعجبت منذ نصف قرن الأجيال البولندية، إننا نعتبر «فيسوافا» موتسارت الشعر، ولعلّ ما يُبرر ذلك الغنى فى الوحى.. وعلى وجه الخصوص تلك الرقة التى تتمازج فيها كلمات قصائدها» .

obeikandl.com